عشرون قرنا في عشرين يوما

ملحق المغرب الثقافي

الخميس 2 ربيع الثاني عام 1357 الموافق 2 يونيه سنة 1938

لا نعلم أمة من أمم الأرض توجد في القرن العشرين ولكنها تعيش في القرون الغابرة، تعيش في قرون مظلمة بأنظمتها وعاداتها وخرافاتها وأعمالها بل بكل شيء يتصل بها حتى أصبحت في نظر الأجانب متحفا يقصده السائحون ليشاهدوا أجيالا من البشرية مرت وقرونا من الأزمنة خلت وحياة للرجعية محيت. فيبتعون ويسخرون وهم يستعرضون معروضات هذا المتحف الضخم وينتقلون بين أرجائه الواسعة وهم في شبه « سينما » تعرض أمامهم شريط العجائب والغرائب.

لا نعلم أمة لقبت باسم هذا الشريط إلا المغرب، هذه البلاد التي كانت حتى الأمس القريب دولة من أعاظم الدول على ضفة البحر المتوسط، ضفة المدنية والعرفان فأصبحت اليوم ملهاة في نظر الأمم تعلن عنها مكاتب السياحة في العالم المتمدن أنها بلاد جمعت آثار الأولين وأن أهاليها يعيشون في القرن العشرين بالرغم منهم، لا صلة تربطهم بمدنية العصر وتطور العصر، فتتفنن تلك المكاتب في طرق إغراء الأوربيين لزيارة هذه البلاد تفننا غريبا ، فتارة ترسم صورا من المغرب لا أدري أية علاقة بينها وبين المغرب تمثل الزنوج بأجسامهم السود وألبستهم النباتية وزيتهم البدوية أنها صورة مغاربة، وطورا تصف مجتمعنا بعادات وتقاليد لا نعلم لها من أثر، كل ذلك استغلالا لميل السائح إلى مشاهدة المغرب لينبرى في مجتمعه بعد أوبته محدثا أهله ورفقاءه عن مدهشات ألف ليلة وليلة التي شاهدها بالمغرب والتي حكاها له دليله لتفسير مشاهداته.

ونحن مع اعتبارنا أن مكاتب السياحة تلك تشوه سمعة بلادنا استغلالا لمصلحتها المادية

فإننا نعترف أنها وفقت إلى كذبة أطلقتها على المغرب وأصابت فيها كبد الحقيقة وإن كانت مخجلة حقا فإنها تذيع في نشرات كبيرة تعلق على الحيطان وبأحرف بارزة وألوان ساطعة تلفت النظر: إن السائح إذا زار المغرب يشاهد عشرين قرنا في عشرين يوما. فإنك أذا جلت ببصرك وبفكرك عما ترى في هذه البلاد لا تشاهد أية علاقة بين المجتمع المغربي وبين القرن العشرين الذي يعيش العالم اليوم فيه. إن البون شاسع بين مدنية العصر والحياة التي نحياها، فبينما مدنية العصر تتكيف في المعرفة الحقة في جميع ميادين الحياة، الحياة التي نحياها تمثل الخمول والجهالة تخيم في جميع نواحينا؛ وبينما مدنية العصر تعتمد على القوة والكفاح إذ نستسلم في جميع مظاهر حياتنا بضعف؛ وبينما المدنية العصرية تعلمك أن تعيش للمجموع إذ نحن لا نرعى إلا مصالحنا الشخصية ويعلن كل واحد منا في كل مناسبة « بعدي الطوفان » . كل تلك الصفات المعنوية أدت إلى مظاهر من قلة التهذيب وهيأت لنا وسطا لا يعرف التطور في أي ناحية من نواحيه وجعلت جذور حضارتنا الماضية تجف وتموت إذ لما تصرمت القرون على جمودنا أصبحت جماعاتنا متجردة عن مثلها العليا تحصر كل اهتمامها وتفكيرها في ثروة تجمعها ومتاع تكسبه وزينة مظهر تفخر به، وظلت حياتنا في دبيبها تتعثر وبويلاتها تنتحر حتى فاجأتنا مدنية العصر وقوة العصر فذهلنا أمامها وخررنا لها مستسلمين نحاول أن نتلمس أبوابها ولكن لا ندري أين هى ونعجب بها ولكن لا ندرك سر تفوقها. وهكذا أصبحنا حديث هزل واستغراب في أفواه الأجانب نمثل القرون الغابرة ونجمع كل مظاهرها التي قضى عليها التطور وتجاوزها التقدم العلمي وأصبحت عشرون قرنا تحشر في حياتنا.

جميل أن نحافظ على عاداتنا وتقاليدنا غير المضرة والمخجلة ولكن يجب قبل ذلك أن نعيش في عصرنا وأن نغير حياتنا لنصيرها خاضعة للتطور البشري العام، وبذلك لا غير ندفع عنا تهمة الجمود التي تعبر عنها كلمة مكاتب السياحة « عشرون قرنا في عشرين يوما » أصدق تعبير.